قصة لبنانية

قيود العبودية !!

بقلم الاستاذ كامل مصباح فرحات

◎◎

صراخ عنيف يتعالى من اعماق الوادى . وصوت آخر يصيح اقتلوه : ثم انقطع الصراخ ودوت أربع طلقات نارية اعقبتها صرخة داوية ضجت في الوادى ضجيج العاصفة . وخيم السكون ولم يعد يسمع شيء فى تلك الليلة المقمرة . فكل شيء ساكن ، وهذا الوادى بعيد عن القرية وهو واد موحش تقوم به صخور مرتفعة هائلة تتكدس على جانبيه وفي قاعة كأنها ابراج بعضها مهدم والبعض الآخر مازال مشيداً لم تمتد اليه يد الخراب . ولصمت الوادى ورهبة الصخور الشاهقة وشعاع القمر الجميل روعة وجمال تقف عندها النفس حائرة خاشعة . وتحت صخرة مرتفعة من صخور الوادى طرحت جثة شاب اصطبغ وجهه بالدم . وذراعاه القيت احداهما على صدره والثانية مبسوطة كأنها بسطت لعناق حبيب ، في تلك الساعة كان الجناة الذين قتلوا هذا الرجل وطرحوا جثته فى الوادى جالسين بقصر سيدهم عبد المجيد بك يلهون ويقصفون وقد صفت امامهم على الموائد اكواب الخمر وتصاعدت الانغام ترف متراقصة وتنساب في عروقهم فتفتح أمامهم دنيا الاحلام وتطير بهم نشوة الخمر ونشوة الانغام الى عوالم سحرية

وهذه الصفة يندر أصحابها في هذا العصر وكان لمجلسه الطويل أنا وجمع من الاخوان في (الصالحية) حيث التقطت لنا الصور العديدة أبلغ الاثر فى نفسي لوداعته ولطفه ، ولا أنسى ليلتنا في المطار وسط الحديقة الغناء التي شاءت يد الغرب المستعمران تمتد الى شط العرب فترسم فنها بوضوح ، بدعوة من الاستاذ سلمان الابراهيم المحامي صاحب « صدى الفيحاء » مكرما فيها الشابين الوجيهين

وامامهم فتاة ترقص وهي تثنى ثم تندفع الى الامام وتتباطأ في دورانها حيناً وتقفز بحماس حينا آخر مظهرة في رقصها الرائع فنونا من التفنن والاغراء . وسيدهم على كرسيه شامخ الرأس منتفخ الصدر تنم نظراته وقسمات وجهه وجلسته عن كبرياء تغمر كيانه . وقد بدا في مظهره كأنه احد الفاتحين العظام او احد ابطال الاساطير وكان في جلسته تلك يتناول كأسه بوقار ويميل الى فتاة بجانبه فيقرع كأسه بكأسها واستمروا في لهوهم حتى الصباح فرقد البك وتفرق الخدم وبينما هو راقد اذا به ينتفض جالسا في سريره فقد ايقظته ضجة علت فى القرية فخرج الى الشرفة فوجد عدداً من الرجال يحملون نعشا وقد ارتفع وراءهم العويل والنواح فقلب البك شفتيه وقال تبا لهم لقد ظننت انه حصل شيء جديد والآن لقد ازلت ذلك الحاجز الذى كان يحول دوني ودون عشيقتي ورجع البك الى سريره وتابع الموكب سيره حتى وصل الى بيت القتيل فخرج رجل هرم تتهدل لحيته على صدره وصرخ بصوت تجمعت به كل معاني الألم والعطف والحرقة ، ولدي ماذا أصابك ياولدى . ان هذا الهرم هو « جواد قاسم » والقتيل ولده امين وفي ذلك النهار دفن امين فبكته قريته ورجع اهل القرية الى بيوتهم وهم حائرون يتهامسون والوجل يملأ قلوبهم فكلهم يعلمون لماذا قتل امين جواد قاسم . فعبد المجيد بك يعشق نجاح زوجة امين وقد حاول ان يغريها فكانت تنفر منه لأنها كانت وفية لزوجها تأبى ان تدع ذلك الظالم اللئيم يلمس جسدها ويرمي بها في فستنقع ولم يشأ البك يصبر على ذلك اللهيب لهيب الحب الذي يضطرم في قلبه فاخذ يفكر فى كيفية اختطافها وزجها

خيرى وعبد الله أولاد المرحوم الحاج داود السلمان بقرانها . كان حضرته يفيض بحديث ساحر ونكت لاتكاد تنضب على طول الجلسة وقصر الليلة ، وفيها لمست روحه واحاسيسه ونزعته لحب الخير والصالح العام .

هذا هو الشذر الذى هيمن على مشاعرى فاحببته .

البيان

في سراديب القصر وان لم يوفق الى ذلك فسيقتل زوجها واوعز لاحد خدمه بان يتجسس حول بيت أمين وبينما الخادم يتجسس خرج أمين فانهال عليه ضربا بعصاه واخذ يشتمه وقال له سوف لا تراني في هذه القرية مادام سيدك يريد أن يعتدي على شرفي وذهب الخادم فاخبر سيده فاجابه دعه فهو لا يستطيع أن يرتحل بسرعة وعلى الاخص لأنني سأظهر له بانني لا اعلم باعتدائه عليك وبعد مضي اسبوع من تلك الحادثة ذهب أمين الى قرية مجاورة ليزور أحد أصدقائه وبينما هو في الطريق إذ هجم عليه أربعة رجال شهروا عليه مسدساتهم وأنذروه بان لا يصيح ، واقترب أحدهم فشد وثاقه وكمم فمه وساروا به حتى وصلوا الى ذلك الوادي الموحش فالقوه بين الصخور وجلسوا حوله يتمازحون وكانوا يصفعونه كلما حاول أن يحرك ساكنا وفي منتصف الليل قال أحد الخدم وهو سعيد ، الخادم الذي يعتمد عليه سيدهم : إن سيدنا أوصانا بان لا نذبحه بالمدية بل نطلق عليه أربع رصاصات كما أنه أمرنا بأن نترك جثته في الوادي عسى أن يعثر عليها أحد الفلاحين او الرعاة فتدفن في القرية وتدرك نجاح بان سيدنا قادر أن يريها زوجها جثة هامدة . والآن ارفعوا الكمامة عن فمه ودعوه يتكلم ويستغيث عساه يريد أن يقول شيئاً فليقل فلا يسمعه أحد غير هذه الصخور الصماء وتقدم أحدهم فرفع الكمامة عن فمه عند ذاك تنفس أمين الصعداء وسكت وهو يسترجع أنفاسه التي كانت تحبسها الكمامة في صدره ثم صاح بهم اقتلوني أيها الاوغاد ، ولكن ليتأكد سيدكم بان دماءنا لن تضيع وان سيف النقمة سيشق قلبه في يوم ما . واندفع يصرخ أين العدل أين هي الرحمة الانسانية ويل لكم ماذا جنيت أريحوني واطلقوا علي رصاص بنادقكم فقال أحدهم أريحونا من ثرثرته واطلقوا عليه عياراتكم النارية لعله نعسان ويريد أن ينام نوما أبديا عند ذاك اطلقوا عليه اربع رصاصات فصاح صيحة الموت ويالها من صيحة رهيبة وفي اليوم الثاني عثر أحد الرعاة على الجثة وهكذا قتل رجال عبد المجيد بك ذلك الرجل البريء . وقد هالت هذه الجريمة أهل القرية ولكن تحملوها بصمت وصبر عجيبين لأنهم اعتادوا تحمل مثل هذه النكبات فمن أذنب منهم يموت بمثل لمح البصر وكانت القرى المجاورة تخاف من عبد المجيد فقد أفقد من تلك القرى رجالا عديدين كان يأتي بهم الى قصره فيميتهم بعد أن يمثل بهم أفظع تمثيل .

أما والد القتيل فقد أدرك وهو في غمرة أحزانه بأنه لا يستطيع البقاء في تلك القرية ولا يقوى على النظر الى الى وجه قاتل ابنه وفي الليل بعد أن هجع الناس أيقظ جواد قاسم زوجة ولده لقتيل وولده الصغير وديع وساروا في الظلام وتابعوا مسيرهم حتى الصباح فوصلوا الى تحت شجرة وكان التعب قد هد قوى ذلك الهرم الحزين فنام واخذت نجاح تبكي بكاءا صامتا وليس أروع من البكاء الصامت يصدر عن حسناء مفجوعة اما اخو القتيل وهو في الثامنة من سني حياته فلم يكن محزونا بقدر ماهو مشغول باسئلة عن هذه الرحلة التي قام بها والده ، واستفاق الوالد فاذا الوقت الظهر فالقى رأسه بين يديه ورفعه وعيناه مغمورتان بالدمع وتنهد قائلا : أين أنت يا أمين ما الذي ابتغي بعدك ياحبيبي رباه ماذا جنى ولدي حتى انتقم منه ذلك المجرم المستبد ، آه أفيحسب انه سينجو من انتقام الله ياروح ولدي رفرفي فوقي وانقلي إلي عبير انفاسه وحفي آلامي وبددي ظلمات يأسي المتراكم ، وعلا شهيقه فبكت الحسناء وبكى الصبي وداموا على ذلك بضعة دقائق ثم استرهم ذلك الهرم بالمسير فساروا حتى وصلوا الى قرية فدخلوها واخذوا يتسولون بها وبدأوا ينتقلون من قرية الى قرية حتى قادتهم الاقدار الى مدينة بيروت فراحوا يستندون اكف المارة وفي الليل كانوا يلجأون الى مكان خرب مهدوم وكانوا عندما يتعب ذلك الهرم من التجوال يلجأون ليستريحوا في منعطف ضيق يأكلون بعض ماجمعوه من الخبز . ومرت احدى السيدات فاستلفت نظرها جلوسهم في ذلك المنعطف البعيد عن الضوضاء وقد راقها منظر ذلك الصبي الصغير الذي تتوقد نظراته بذكاء فطري ويتمتع ببنية كانت رائعة في جمال تركيبها وكانت هذه المرأة لم ترزق أولاداً فهفا قلبها لذلك الطفل واحبت ان تجعل منه

ابنائها فترددت في بادئ الامر وفي اليوم التالي صممت على أن تتبنى الصبي فذهبت الى ذلك المتعظم وخاطبت اباه في الامر فمانع ولكنه قالت له بانها ستجعله مع ابنه وزوجة ولده في رعايتها فعند ذلك وافق فانتقلوا من ذلك المنعطف الفذر الى قصر جميل مفروش بأثمن الرياش ومضت سنتان فتوفي الوالد ومضت الاعوام تسير منحدرة في غمرة الماضي واخذ الصبي وديع يتقدم في دروسه سنة بعد سنة وتخصص فدخل قسم الطب فكان مثالا للاجتهاد ونال الشهادة بتفوق وكان كثير التدقيق يستفيد من التجارب كما انه كان كريم الاخلاق في معاملته المريض فاصبح ذا شهرة واسعة وكانت الحكومة تفكر بتأليف لجنة طبية لزيارة المناطق الجبلية والاشراف بها على الحالة الصحية وما أن شرعت بتنفيذ الفكرة حتى وقع اختيارها على وديع فجعلته رئيساً لتلك اللجنة وانتقلت اللجنة الى احدى المناطق الجبلية واخذت تنتقل من قرية الى قرية حتى وصلوا الى القرية التي يملكها عبد المجيد بك .. وكان وديع صغيرا عندما بارحها فأنسته اياها الايام ولكن زوجة أخيه وهي تعيش خادمة في بيت المنزية التي تبنته كانت تحدثه عن مقتل اخيه فدفعه دافع خفي للتعرف بعبد المجيد بك ولم يقصده من ذلك التعرف الانتقام بل رؤية الرجل الذي حوله الجاه الكاذب والغرور الاعمى الى ذئب في صورة انسان وذهب مع ثلاثة من رفاقه الاطباء يقصدون قصر عبد المجيد بك وماان وصلوا حتى وجدوا أمام القصر رجلا هرما خمير ارث الثياب تقوده بنت صغيرة فاقترب منه وديع وقال هل عبد المجيد بك في القصر فالتفت الرجل الضرير وأجابه من أنت ياهذا وماذا تريد من عبد المجيد بك فقال وديع أريد أن أراه فقال الضرير أنا هو عبد المجيد واني لم اعد بك فيها أنا أسير الى قبري وأنا لا أملك شيئاً من حطام الدنيا .. فجمد وديع وسيطر عليه الذهول وحار رفاقه الاطباء في الأمر ولكنه لم يلتفت اليهم ولقترب من عبد المجيد قائلا : أريد أن أعرفك بنفسي فأنا وديع بن جواد قاسم وشقيق أمين الذي اوعزت لرجالك بقتله فوقع الضرير رأسه وسأل حفيدته — وهي البنت الصغيرة التي تقوده — هل يخاطبني أحد من الناس أم أنا في حلم فأجابته لا ياجدي لست بحالم فان هنا رجلا يخاطبك ومعه ثلاثة رجال فقال مخاطباً وديع اطلب من حضرتك العذر لأنني اعتدت أن أرى مواكب من الارواح تزور مخدعي في الظلام وتأخذ بتأنيبي لذلك ظننت نفسي الآن في حلم وتتمثل لي اولئك الذين جنيت عليهم فيحرمونني الرقاد ، فان قيود العبودية التي كنت اكبل بها اولئك الفلاحين انقلبت الى مطارق تهوي على رأسي وتلك السياط التي كنت الهب بها ظهورهم احس بان أيد مجهولة تضربني بها على وجهي وان آثامي قلبت افعى تنهش قلبي وأما ثروتي فقد ضاعت وقصري عليه كثير من الديون وولدي الوحيد تمادى في عبثه وبجونه فأصابه الجنون وليس لي من معين سوى حفيدتي هذه ثم اردف اقتلني ياهذا وانتقم لأخيك فأجابه وديع أنت جدير بالرحمة والعطف وفتح حافظة نقوده وقال تفضل هذه الاوراق المالية فتراجع عبد المجيد بك وهو يقول انا غير جدير بالعطف انا رجل سفاك مجرم إنني لم اعمل ما يرضي العدل الانساني ولكن وديع قدم له الاوراق بتواضع وطلب منه قبولها فتناولها وبكى وهو يشكر وديع الطبيب النبيل بالفاظ يمازجها ندم قاتل وخجل عظيم فودعه وديع وبقي عبد المجيد ينتفض لفرط دهشته من هذا الطبيب الشاب الذي ملأت الرحمة قلبه فانصرف لخدمة الانسانية ومؤاساة البائسين .

برعشيت : لبنان — كامل مصباح فرحات

البيان العدد ٦٧ و ٦٨ — التاريخ ١٠ / ٧ / ٩٤٩

اعلان

ان المكان المرقم ٧–٧ ت ٣٠٦ الواقع في محلة المشراق والعائدة الى الشيخ علوان بن حمد شحسة المؤمن عند الدائن السيد محمود السيد هادي النقيب قد وضع بالمزايدة مقابل بدل الرهن وربحه فمن تاريخ هذا الاعلان لمرور خمسة واربعين يوما على الطالب للشراء ان يراجع دائرة الطابو والمنادي عبد الغني ابو غنيم

١ – ٣ — مامور طابو النجف